البحوث

صلة القبيلة بالسلطة التركمانية في العراق: جنوبه أنموذجًا قراءة في المشهد القبلي (٣)(*)

د. عبداللطيف بن ناصر الحميدان

دراسة الصلة بين القبائل وسط العراق وجنوبه والسلطة الحاكمة في بغداد إبان الحقبة التركمانية في القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي)، حين اتسم المشهد السياسي في العراق عموما بشدة القتامة والظلامية والاضطراب موازنة بمشاهد سابقة أو لاحقة، إضافة إلى ما أصاب تجارة العراق من كساد وظلم، وكون القبائل العربية إبان هذه الحقبة هي صاحبة الصولة والهيمنة والنفوذ حيث نجحت في صد محاولات التركمان المتكررة لتمدد وإقامة كيان لها.

The Relationship between the Tribe and the Central Authority in the Turkman Period: South of Iraq as an Example, A Reading in the Tribal Scene

Dr. Abdulatif Bin Nasser Alhumaidan

This article discusses the relationship between the tribes of central and southern Iraq and the central authority in Baghdad during the Turkman period in the 9th/15th century. During this time, the political scene in Iraq was characterized by intense darkness and disturbance, more so than any earlier or later period. Commerce in Iraq also suffered. The Arab tribes were the real sources of power and influence during this time and were able to fend off the repeated Turkman attempts to extend their influence and establish a presence in Iraq.

(قدم للنشر في ٢٥/ ١١/ ١٤٣٧هـ، وقبل للنشر في ٢٣/ ٢/ ١٤٣٨هـ)

قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك سعود

Department of History - College of Arts - king Saud University

aalhomaidan@ksu.edu.sa

مجلة فصلية محكمة تصدر عن دارة الملك عبدالعزيز
العدد الثاني رجب ١٤٣٨هـ/ إبريل ٢٠١٧م السنة الثالثة والأربعون
الدارة

تمثل الحقبة التركمانية في العراق - لا سيما إبان حكم قرا قوينلو (البارانية) - في نظر المؤرخين الذين يأتي ذكرهم أكثر الحقب سوءًا وقتامة، وهي امتداد للحقبة المغولية المتأخرة. وكان شاه محمد بن قرا يوسف أول من تولى حكم بغداد بعد قرا قوينلو، وقد استغرق حكمه قرابة العقدين، وهي المدة التي وصفها المؤرخ الشامي المجهول بأنها "كانت مستضعفة لا تتجاوز ما حول بغداد مع ظلم كبير"(١). أما الجزيري - من أهل القرن ١٠هـ - فقال في حوادث سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٨م: "وكان انقطع محمل العراق قبل هذه السنة مدة تزيد على عشر سنين منذ مقتل أحمد بن أويس (سلطان بغداد)، ووليها بعده الظالم ابن قرا يوسف، وخربت في زمنه لزائد ظلمه على سكانها، فتفرقوا في البلاد وانتقلوا من أوطانهم، واستوطنوا بلدًا نائيًا"(٢).

أما الكساد والخراب التجاري الذي أصاب العراق حينذاك، فذكر الصيرفي (ت٩٠٠هـ) أن تجار مشهد علي (النجف) والكوفة والبصرة الذين كانوا يتبضعون بجدة من

(*) نشر المشهد القبلي الأول في مجلة العرب، في العدد ٩-١٠، س٥٢، (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م)، والعدد ١١-١٢، للسنة نفسها. أما المشهد الثاني فقد نشر في مجلة الجمعية التاريخية، العدد ٣١، للسنة ١٥، (١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م). أما المشهد الرابع والأخير فقد أفردنا له كتابًا سوف ينشر قريبًا ضمن إصدارات الدارة.

(١) مؤلف مجهول، **حوليات دمشقية ٨٣٤-٨٣٩هـ**، تحقيق: حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص٦٣-٦٤.

(٢) عبدالقادر بن محمد الجزيري، **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة**، أعده للنشر: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ١/ ٧١٧-٧١٨.

متاجر الهند ألزمهم السلطان المملوكي برسباي عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٩م الحضور ببضائعهم إلى القاهرة، فنزل بهم من البلاء العظيم والظلم ما لا يعبر عنه(٣)، بل إن السلطان منع تجار الموصل وحماة ودمشق من حمل الأقمشة إلى القاهرة، وأرغم قافلة قادمة من الموصل محملة بالثياب على الرجوع إلى بلادها، فحلَّ بالناس بلاء لا يمكن وصفه، وخربت الموصل بعدها، وبطل عمل الثياب فيها(٤).

وعلى أي حال، انتهى حكم شاه محمد بن قرا يوسف حين زحف أخوه إسبند (إسبان)(٥) عليه سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢-١٤٣٣م، وعند فراره من بغداد "سلب من بها جميع ما بأيديهم" كما ذكر المؤرخ الشامي أيضًا(٦). أما حكم أخيه إسبند الذي خلفه فقد وصفه المقريزي (ت٨٤٥هـ) بقوله: "أخربت بغداد ولم يبق بها جمعة ولا جماعة ولا أذان ولا أسواق ... بحيث لا يطلق عليها مدينة بعدما كانت سوق العالم"(٧). ويقرب من هذا

(٣) علي بن داود الصيرفي، **نزهة النفوس والأبدان**، تحقيق: حسن حبشي، دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٣م، ٣/ ١٤٥-١٤٦.

(٤) المصدر نفسه، ص١٤٦.

(٥) ورد اسمه في المصادر بأشكال متعددة. انظر: عباس العزاوي، **تاريخ العراق بين احتلالين**، بغداد، مطبعة التفيض، ١٩٣٩م، ٣/ ٨١، ٨٥، ١١٤.

(٦) مؤلف مجهول، المصدر السابق، ص٦٤.

(٧) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ٧/ ٣٢٣، ٤٤٧. عبدالباسط بن خليل بن شاهين، **نيل الأمل في ذيل الدول**، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، المكتبة العصرية، بيروت - صيدا، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ٥/ ١٠٦. العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ٨٠-١٠٠.

الوصف قول ابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ): "أخرب أصبهان (إسبان) بن قرا يوسف بغداد وتشتت أهلها منها، وقبل هذا قد أخرب الموصل"(٨).

أما ابن تغري بردي (ت٨٧٣هـ) فوصف ظلم أولاد قرا يوسف الثلاثة، حين ترجم لأخيهم (الإسكندر)، فقال: "أخربت عامة بلاد العراق وبغداد في أيامه، ثم في أيام أخيه أصبهان وشاه محمد أولاد قرا يوسف، ألا لعنة الله على الكل"(٩).

ومن المحتمل أنّ ما أورده المؤرِّخون المذكورون يتضمن شيئًا من المبالغة، إلا أنّ الخراب ليس سببه سياسة ممنهجة، ولكنه نتيجة افتقاد الشعور بالمسؤولية والمشاعر الإنسانية لدى الحكام؛ إضافةً إلى الصراع بين أولاد قرا يوسف على السلطة من جهة، ومن جهة أخرى انشغالهم بصراعهم مع التيموريين حكام إيران(١٠).

صلة القبائل قبيل قيام سلطة قرا قوينلو (البارانية):

إنّ ما أورد آنفًا عن الحالة المأساوية التي كان يشهدها العراق إبان سلطة قرا قوينلو يقتضي الحديث عن صلة تلك السلطة بالقبائل العربية بمختلف عشائرها وطوائفها قبيل

(٨) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، من مطبوعات دائرة المعارف العثمانية، وأعادت طبعه دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ٩/ ١٧٥.

(٩) جمال الدين يوسف بن سيف الدين تغري بردي، **حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور**، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، القاهرة، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م، ص٢٩٢. العزاوي، المرجع السابق،٣/ ٩١.

(١٠) العزاوي، مرجع سابق، صفحات كثيرة متفرقة.

وصولهم إلى السلطة. والواقع أن تلك القوى العربية المستقرة في وسط العراق وجنوبه كانت قد برزت منذ أواخر الحقبة المغولية المتأخرة، حين اجتياح تيمور لنك العراق وبغداد تحديدًا مرات عدة[١١]. وتمثل ذلك في كل من قبيلتي عبادة[١٢] والمنتفق[١٣]. وقد تصاعدت قوة تلك القبائل بدرجة

(١١) جاستن مروزي، **تيمورلنك قاهر الملوك والسلاطين وغازي العالم**، ترجمة: مايا أرسلان، دار الكتاب العربي، بيروت، ٢٠١١م، ص٢٨٦، ٣١٦-٣٢٠. د. عبداللطيف بن ناصر الحميدان، "الصلة بين القبيلة والسلطة خلال الحقبة المغولية"، **مجلة الجمعية التاريخية السعودية**، العدد ٣١، السنة ١٥، (١٤٣٦هـ/ ٢٠١٥م)، ص١٠٥-١٣٥. نوري عبدالحميد العاني، **العراق في القرن الخامس عشر**، دار الوراق، بيروت، ٢٠١٤م، ص٦٠-٦٤، ٧٢-٧٣، ١٠٨-١١٣، ١٢٤-١٢٩، ١٦٤-١٧٠.

(١٢) عبادة: قبيلة من عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة، كانت في القرن السادس الهجري قد نزحت من نجد واستقرت عند تخوم العراق العربية، وفي نهاية القرن اقتربت من الفرات الأوسط، وإبان الحقبة المغولية توغلت في شرق الفرات حتى استولت على واسط وبرز زعيمها ناصر بن محمود القباني، ثم توغلت في الأهواز وتمكنت من الاستيلاء على البصرة مدةً قصيرة في نهاية حكم الجلائريين. د. عبداللطيف بن ناصر الحميدان، "الصلة بين القبيلة والسلطة خلال الحقبة المغولية".

(١٣) المنتفق: إحدى قبائل عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة. استقرت في جنوب العراق في القرن الخامس الهجري، وكان لها آثار كبيرة في تاريخ المنطقة، وقد ضربت بعد ضرب بني أسد في أواخر العهد العباسي؛ لذا توغل قسم منها إلى الأرياف الجنوبية. د. عبداللطيف بن ناصر الحميدان، "صلة السلطة بالقبائل في العصور العباسية المتأخرة"، **مجلة العرب**، ج٩-١٠، ج١١-١٢، السنة ٥٢، (١٤٣٨هـ/ ٢٠١٧م)، ص٦١٤-٦٣٣، ٨٤٥-٨٥٨. راجع أيضًا: مجموعة من الباحثين، **معجم البلدان والقبائل في شبه الجزيرة العربية والعراق**، ترجمة: د. عبدالله بن ناصر الوليعي، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٥هـ، ١٠/ ٢٧-٧٤.

أكبر وأوسع إبان حكم قرا قوينلو، كما سنرى لاحقًا، حيث صار لها الصولة والجولة فيما يقع جنوب بغداد حتى البصرة، وامتدادًا إلى إقليم خوزستان المحاذي لها؛ إذ تمكنت من صد محاولات التركمان المتكررة لاختراق مناطقهم التي كان اختراقها بالغ المشقة ويتطلب تضحيات كبيرة؛ لكثرة الأهوار(١٤) والبطائح فيها، حيث تغطيها الأحراش وغابات القصب والبردي. إضافةً إلى وخامة هوائها في بعض أشهر السنة حين تنتشر سحب البعوض التي لا تسمح بالنوم المريح، فكانت الحالة هذه ملاذًا آمنًا لساكنيها يصعب وصول الأعداء إليهم. فكانت قبيلة عبادة تتمترس في منطقةٍ حملت اسمها

(١٤) الهور: مسطح مائي كالبحيرة، وهي لغة سوداوية عراقية، وقد تكون جنوبية لا تعرفها العربية في الأقاليم الأخرى. راجع: إبراهيم السامرائي، **العربية تاريخ وتطور**، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٤٦. أما تسمية البطائح فلأن المياه انبطحت فيها، أي: سالت واتسعت في الأرض، وهي أرض واسعة بين واسط والبصرة تغمرها المياه عدا المواضع العالية التي سكنها القوم وزرعوها وبنوا فيها القرى في عهد البويهيين، وتحصنوا بالمياه والسفن، وخرجوا عن طاعة السلطان وكونوا فيها إمارة عمران بن شاهين. وفي أواخر العصر العباسي تكاثر لجوء بعض القبائل إليها مثل بني أسد وبني المنتفق ثم عبادة في عصر المغول، إضافةً إلى طوائف أخرى صارت لها تلك المياه والأهوار كالمعاقل الحصينة. راجع: ياقوت بن عبدالله الحموي، **معجم البلدان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ١/ ٤٥٠. علي الشرقي، "البطائح"، **مجلة لغة العرب**، بغداد، أعداد متفرقة، السنوات ١٩٢٦-١٩٢٨م. كي لسترنج، **بلدان الخلافة الشرقية**، ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٢م، ص٦١-٦٤. حسن الخياط، **جغرافية الأهوار ومستنقعات العراق**، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١٥-٣٧.

Saleh El-Ali, art; *al-Batiha*, EI2, (Eds.H.A.R.G.BB & Other), Leiden, 1960, Vol. 1.

(جزيرة عبادة) بقيادة ابن قبان. أما قبيلة معاوية[١٥] بقيادة ابن عليان الطائي[١٦] فقد قطنت إلى الجنوب منها، وتسمى مناطقها (جزائر ابن عليان)، التي تمتد حتى التقاء نهري دجلة والفرات عند المطارة سابقًا والقرنة لاحقًا[١٧].

بقي أن نشير إلى أن قبيلة المنتفق كانت قد برزت منذ حقب قبلها، وفي الحقبة المغولية أدت دورًا رئيسًا أيضًا[١٨] بزعامة مانع بن شبيب العقيلي الذي نجح في إقامة حكمه في البصرة المحاطة ببساتين النخيل شمالاً وجنوبًا، واتخذ من باديتها ملاذًا تدرئ الأخطار عنه حين تداهمه. فكانت قبيلته تتحكم في قيادة قوافل الحج وحمايتها، بل وحتى قوافل التجارة إلى بلاد الشام بعد أن تقطعت منذ وصول قرا قوينلو إلى الحكم في بغداد[١٩].

(١٥) معاوية، وتكتب أحيانًا معاوي. نسبهم أبو علي الهجري إلى عبادة بن عقيل بن كعب، راجع: حمد الجاسر، **التعليقات والنوادر عن أبي علي الهجري**، الرياض ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، القسم الأول، ص١٠٥. ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٨م، ص٢٧٣. أما ياقوت الحموي فقد ذكر أن معاوية بن عقيل هو المنتفق. انظر: ياقوت، المصدر السابق، ١/ ٥٣٠. ويلحظ أن العزاوي في المرجع السابق قد التبس عليه الأمر، فقرأ معاوي على أنه معادي، فجعل الواو دالاً.

(١٦) يبدو أن ابن عليان الطائي تولى زعامة طائفة معاوية وليس هو منهم، بل جاء من الشام في العهد الجلائري، وهو ينتسب إلى آل فضل الطائي، حيث أدى دورًا رئيسا في منطقة الجزائر.

(١٧) راجع الهامش ١٤.

(١٨) راجع: عبداللطيف ناصر الحميدان، "الصلة بين القبيلة والسلطة في الحقبة المغولية"، مرجع سابق.

(١٩) المرجع نفسه.

ظهور المشعشع وموقف عرب البطائح منه:

في البدء لا بد من الحديث ولو بإيجاز عن محمد بن فلاح بن هبة الله الذي ينتهي نسبه إلى موسى الكاظم، الإمام السابع عند الشيعة الاثني عشرية، والذي اشتهر بالمشعشع، فصار علماً على أتباعه ومريديه الذين اشتهروا بالغلو في أفكارهم والتطرف في عقائدهم(٢٠). ولد سيد محمد بن سيد فلاح في مدينة واسط، وتلقى فيها تعليمه الأولي، ثم انتقل إلى مدينة الحلة والتحق بمدرسة الشيخ أحمد بن فهد الحلي (ت٨٤١هـ/ ١٤٣٧-١٤٣٨م) الذي له شهرة واسعة في زمانه بين علماء الشيعة في علم الأصول والفروع والتصوف(٢١). وقد تولى الشيخ المذكور رعايته وارتبط معه بعلاقات مصاهرة، وفي أثناء هذه المدة اعتكف ابن فلاح في مسجد الكوفة سنة كاملة يطيل التأمل، فأخذت شخصيته في التبلور، وغلب عليه طابع التصوف، وأخذ يظهر تخليطًا وادعاءات بأنه المهدي، وأن الإمام المنتظر سيظهر قريبًا. كانت

(٢٠) ترد كلمة المشعشع في عدة معان. راجع: محمد خليل الجابري، **إمارة المشعشعين**، (رسالة ماجستيرٍ غير منشورة مقدمة لجامعة بغداد، ١٩٧٣م)، ص١١-١٨. مصطفى كامل الشيبي، **الفكر الشيعي حتى القرن الثاني عشر الهجري**، بغداد، ١٩٦٦م، ص٣١٢. جاسم حسن شبر، **مؤسس الدولة المشعشعية**، مطبعة الآداب، النجف، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٢٥-٦٨.

(٢١) عبدالله بن فتح الله الغياثي، **التاريخ الغياثي**، تحقيق: طارق نافع الحمداني، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٥م، ص٢٧٣، هامش٤. أحمد كسروي التبريزي، **تاريخ عربستان خلال خمسمئة عام**، ترجمه عن الفارسية سعيد السيد الباجوري، دار الثقافة للطباعة، القاهرة، ١٩٨٤م، ص١٥.

هذه الادعاءات سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م، وهو ما أثار غضب شيخه واستنكاره، فأدى إلى افتراق بعضهما عن بعض، فكانت نقطة تحول رئيسة في حياته.

أخذ سيد محمد بن فلاح يتنقل بين القبائل لحمايته من شيخه ابن فهد الذي أهدر دمه؛ لخروجه عن عقائد الشيعة الاثني عشرية، ولربما فعل ذلك خشية من حاكم بغداد التركماني الشيعي أيضًا، وهو ما ألجأ ابن فلاح إلى الأمير منصور بن قبان العبادي، ثم انسحب بعدها إلى موضع لسكنى طائفة المعدان (المعاوي)، فكانت الجماعة الأولى التي التفَّت حوله وناصرته، ويقال لها: "عشيرة بني سلامة"[٢٢]، كما التفَّت حوله طوائف من العرب من الرزنان والسودان[٢٣] وبني طي الذين يقطنون عند الأنهار المتفرعة من نهر دجلة. وكان سيد محمد بن فلاح يظهر حينها بعض الخوارق والادعاءات وأنه هو المهدي، ويبدو أن ابن فلاح كان ذا شخصية قوية مؤثرة وصاحب كاريزما[٢٤].

بعد انتقال المشعشع مع أتباعه إلى منطقة جصان[٢٥] وتنكيل حاكمها بأتباعه وقتل كثير منهم، عاد واستقر عند

(٢٢) راجع الهامش السابق.

(٢٣) إن قبيلة السودان عدنانية ولا تزال تقيم حتى الآن في محافظة العمارة في العراق. راجع: العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ١١٢.

(٢٤) معظم من كتب عن المشعشع اعتمد أساسًا على: تاريخ الغياثي، وبدرجة أقل على: المولى علي بن عبدالله الموسوي، **تاريخ صفوية أو الرحلة الحجازية**، مخطوطة مكتبة سبهلار، تهران، رقم ١٥١٨، ورقة ١-٥.

(٢٥) جصان: مدينة قريبة من الحدود الإيرانية في محافظة الكوت.

طائفة معاوي (معاوية)[٢٦] الذين يسكنون ما بين دجلة والحويزة فيما يشتهر باسم (نيس)، خطا المشعشع خطوة جريئة غيَّرت مسار حركته حين طلب من أتباعه العزَّل حمل السلاح بعد بيع حيواناتهم من البقر والجواميس التي هي مصدر عيشهم الرئيس وشراء السلاح من سيوف ورماح بدلاً منها. فلبُّوا طلبه وأطاعوه، وما لبث أن أصبحت لديه قوة عسكرية قادها ضدَّ خصومه وأوقع بهم هزيمة مباغتة ونهب أموالهم[٢٧]. واستقطب المشعشع جمهورًا عريضًا من العرب البسطاء الذين قصرت معارفهم عن إدراك الإسلام الصحيح، فتقبلوا أفكاره التي قدمها في صورة الصوفي الذي ظهرت على يديه الخوارق، والسحر الذي بهر عقولهم؛ ليرسم صورة جديدة للحركة الشيعية، وأنه الممهِّد لظهور الإمام المنتظر الذي سوف يُخضع العالم ويقيم العدل، ويقسم البلدان والقرى بين أتباعه وعشائره[٢٨].

كان فضل بن عليان الطائي - حاكم الجزائر - في نزاع مع إخوته، فقتل خلقًا كثير من أهل الجزائر والحويزة. وعند عودة محمد بن فلاح المشعشع إلى الجزائر بعد غزوته، شتت

---

(٢٦) نور الدين الشوشتري، **مجالس المؤمنين**، كتا يفروش إسلامي، تهران، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ٢/ ٣٩٧. الغياثي، المصدر السابق، ص٢٧٣-٢٧٥. العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ١١٤-١١٥.

O.Luft, art Mushasha. EI2.

(٢٧) الشوشتري، المصدر السابق. الغياثي، المصدر السابق.

.O.Luft, art Mushasha. EI2

(٢٨) ممدوح رمضان أحمد، **إيران السنية: الحياة الدينية في إيران قبل الصفويين**، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٨م، ص٣٥٠.

أسرة صخر أو سهر بن عليان الطائي التي كانت منذ القدم تملك الإمارة في الجزائر، فكان ذلك مؤشرًا على تزايد قوة المشعشع حتى لا يبقى في الجزائر من يخالفه؛ إذ بلغ أنصاره العشرة آلاف[٢٩]. ثم قاد ابن فلاح ثلاثة آلاف من أتباعه في الهجوم على واسط للمرة الثانية، إلا أنه عاد منها خائبًا مهزومًا، فذهب إلى الحويزة سنة ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م.

وبذلك يكون المشعشع قد نجح في أدلجة كيان عرب البطائح العقلي والذاتي والسلوكي الذين عانوا ألوانًا من العذاب الطويل على يد السلطات المتعاقبة الغريبة وأعوانها، فرأوا في المشعشع الأمل في الخلاص النهائي مما عانوه من إذلال؛ لذا نجدهم يندفعون باستماتة لمقاتلة أعدائهم برغم بساطة ما يملكونه من أسلحة، ولعل حلقات الذكر التي ينظمها المشعشع لهم كان لها أثر عميق في نفوسهم، فأصبحوا لا يهابون أعداءهم، بل أكثر من ذلك أن المشعشع قد جذب نساءهم حوله، وجندهم أحيانًا في ساحات المواجهة. وهكذا أصبح محمد بن فلاح زعيمًا دينيًا، وشيخًا صوفيًّا يقود جموع الفلاحين العرب الذين ترنو أبصارهم نحو كسر قيودهم، والخلاص النهائي من المهانات والإذلال.

مواجهة المشعشع للتيموريين والتركمان:

كانت الحويزة تابعة لسلطة التيموريين في خوزستان، فعندما ذهب المشعشع إليها ليتخذها ملاذًا آمنًا له، اصطدم

(٢٩) الغياثي، المصدر السابق. محمد جعفر الحسيني، **التاريخ الكبير للجعفري أو تاريخ جعفري**، منتز، ١٩٧٥م، ص١١١-١١٣.

بالشيخ أبي الخير الجزائري حاكمها، فنجح في إيقاع الهزيمة به بعد أن حشد معه حتى النساء في القتال؛ ونتيجة انتصاره في هذه المعركة ازدادت قوته بالتفاف العشائر العربية في الحويزة حوله، إضافةً إلى وسط العراق وجنوبه[٣٠]، وهو ما ولَّد مخاوف شديدة أيضًا لدى السلطة التركمانية ممثلة بإسبند (إصبند) بن قرا يوسف حاكم بغداد، فخرج المذكور بقوة كبيرة من بغداد سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م متجهًا بها إلى الحويزة، وفي طريقه قام بأعمال القتل والنهب والتخريب وسلب أموال السكان. ثم أرسل إسبند رسولاً يحمل الهدايا والغنائم إلى شاه رخ في هيرات سلطان الدولة التيمورية، وأخبره بأنه اضطر إلى الدخول إلى بلاده لحمايتها من أعدائه، ورجاه ألا يعدّه متمردًا عليه، بل عبدًا له، وما يرغب فيه جلالته سوف يُلبيه. وحين التقى الشاه رخ برسول إصفند (إسبند)، أعطاه خلعة ورسالة تحمل العفو عنه، وأعاده مكرَّمًا[٣١]. وعند انسحاب إسبند من الحويزة سعى المشعشع إلى مهاجمته في أثناء انسحابه، بل حاول تطويقه عند اجتيازه نهر دجلة عند قلعة زكيَّة[٣٢]. وأرسل إلى غانم بن محمد بن شبيب السني المذهب طالبًا تعاون قبيلة المنتفق معه لهذا الهدف، إلا أنّ الرسالة وقعت بيد إسبند، وهو الأمر

(٣٠) الغياثي، المصدر السابق. **تاريخ الجعفري**، ص١١١-١١٣.

(٣١) **تاريخ الجعفري**، الصفحة نفسها.

(٣٢) زكيّة - بفتح أوله وتشديد الياء - قرية جامعة من أعمال البصرة بينها وبين واسط. ياقوت، المصدر السابق، ٣/ ٤٦. ويقول أحمد جمال الدين: "تسمى اليوم زجية قرب العزير على نهر دجلة". "خط العمارة"، **مجلة سومر**، ١٩٥٧م، العدد ١٣.

الذي زاد من مخاوفه وسارع بالانسحاب إلى بغداد، وعندها نجح المشعشع في الاستيلاء على سُفن إسبند المبحرة من البصرة والمحملة بالمؤن والأغذية الكثيرة، فكانت غنيمة سائغة لأتباعه(٣٣).

وذكر عبدالباسط بن خليل في حوادث سنة ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩-١٤٤٠م أنه "كانت بين إصبهان بن قرا يوسف (صاحب بغداد) وبين ابن عليان (أمير عربان العراق) حرب انهزم فيها إصبهان أقبح هزيمة، ولحق ببغداد وقد خربت وباد أهلها، وتفرق جمعهم، وتعطلت أسواقها حتى صارت في مقام أولي القرن"(٣٤). ويلحظ أنّ عبدالباسط قد نسب الانتصار إلى ابن عليان أحد أقوى أتباع المشعشع. أما ابن تغري بردي فيصوِّر أساليب المشعشع في القتال، فيقول: "عجز عنه ملوك الشرق، وهو حين يقصدونه بالعساكر يهرب في مركب ويختفي بالجزائر"(٣٥).

على أي حال، لم يترك المشعشع الفرصة بعد انهزام إسبند، فقام بهجوم معاكس استهدف به مدينة واسط، مستعينًا بالقبائل التي انضمت إليه حديثًا، كعبادة، وبني ليث، وبني حطيط، وبني سعد، وبني أسد، فنجح في الاستيلاء عليها ودخلها منتصرًا. ثم أعقب ذلك استيلاؤه على الرماحية

(٣٣) العزاوي، مرجع سابق.

(٣٤) عبدالباسط بن خليل، المصدر السابق، ٥/ ١٠٦. الصيرفي، المصدر السابق، ٤/ ١٦٥.

(٣٥) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ١/ ٤٩٣.

وبناء قلعة فيها[٣٦]، بل إنه طمع في الاستيلاء على البصرة، فسيَّر جيشًا آخر نحوها؛ لانتزاعها من آل شبيب زعماء المنتفق، إلا أنه مُني بالهزيمة في هذه المرة[٣٧]. ويبدو واضحًا أن المشعشع استفاد كثيرًا من الحاضنة الشعبية الواسعة التي أدلجها، وأخذت تلتفّ حوله، إضافةً إلى الاستفادة من المنطقة الجغرافية التي يتحرَّك فيها، والتي تحول دون وصول التركمان أعدائه إليه، إضافةً إلى أنهم كانوا متورِّطين في الصراعات فيما بينهم.

المولى علي بن المشعشع يثير الاستنكار العام:

كان يساعد السيد محمد بن فلاح المهدي في تحركاته ولده الأكبر المولى علي الذي فاق والده بالغلو والتجديف، فأصبحت القيادة الحقيقية بيده، وقد التفَّ حوله كثيرٌ من أتباع والده الذي كان قد شاخ وكبر، حتى ادّعى أنّ الإمام علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قد تجسّدت روحه فيه وأنه حيٌّ يُرزق، بل إنه ادَّعى الألوهية.

(٣٦) العزاوي، مرجع سابق، ٣/١١٥-١١٦. وتعدّ عبادة من عقيل بن عامر بن صعصعة من قبائل الأجود، وتساكن المنتفق في جهات عدة. أما بنو ليث فيسكنون مدينة الحي. وأما حطيط فمن عشائر بني مالك، وكانوا يسكنون في منطقة الأهوار بين السماوة ومنطقة الحمّار، وقد استقرّ بعضهم عند نهر سدرة، في حين أن بني أسد يسكنون قريباً من القرنة وفي جنوب الجبايش في منطقة الجزائر، فاستقرّ بعضهم بالبصرة. راجع: عباس العزاوي، **عشائر العراق**، بغداد، ١٩٥٦م، ٢/ ٥٢-٥٧. وأما الرماحية فخرائبها اليوم قريبة من مدينة الديوانية.

(٣٧) العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ١٤٢، ١٤٥، ١٤٧.

لقد استغل المولى علي غياب بير بوداق بن جهانشاه بن قرا يوسف حاكم بغداد وانشغاله عنها في إقليم فارس بعد خروجها عن سلطة التيموريين[٣٨]، فهجم عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م على النجف وكربلاء - أهم مراكز الشيعة المقدسة - واعترض هناك ركب الحاج العراقي، وقتل كثيرًا منهم ونهب ما في حوزتهم من مال ومتاع، وسلب بعدها الكنوز التي في ضريح الإمام علي والتي لا تقدَّر بثمن ونهبها، ثم أكمل عمله بالهجوم على الحلة أيضًا وقتل كثيرًا من سكانها ونهب أموالهم، تاركًا سحابةً من الأحزان والكثير من اللعنات بعد انسحابه[٣٩].

ومن الملحوظ أنّ أعمال المولى علي هذه كانت قد زامنت نجاح السلطان العثماني محمد بن مراد الثاني (ت١٤٨١م) في فتح القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، وهو الأمر الذي أدخل البهجة والسرور في قلوب المسلمين جميعًا[٤٠]. لقد

(٣٨) العزاوي، مرجع سابق.

(٣٩) المولى علي الموسوي، المصدر السابق، ورقة ٢٥. محمد علي زنجير، **مشعشعيان**، تهران، ١٣٨٢، ص١٤١-١٧٦. العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ١٤٢-١٤٣. ومن الجدير بالذكر أنّ جاسم حسن شبَّر ألف كتابه دفاعًا عن أعمال المشعشع وتبريرًا لها. انظر: **تاريخ المشعشعين**، مطبعة الآداب، النجف، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٥م، ص٥٠-٦٩.

(٤٠) محمد مصطفى صفوت، **فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح**، منشورات الفاخرية، الرياض، ودار الكتاب العربي، بيروت. فيصل بن عبدالله الكندري، **فتح القسطنطينية**، مكتبة الفلاح، الكويت، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

Steven Runciman, *The Fall of Constantinople 1453*, Cambridge press, 1969.

عبر المؤرخ عبدالقادر الجزيري عن مدى السخط والاستياء من أعمال المشعشع هذه الذي عم أنحاء المسلمين حين قال: "في هذه السنة نُهِب حاج العراق وقُتل غالب من فيه من شخص من الخوارج يدعى المشعشع المدعي أنه المهدي بنواحي العراق، وكان له أكثر من عشرين سنة يزعم أنه المهدي، واجتمع عليه خلق كثير، وعجز عنه ملوك الشرق، وإنه متى قصدوه بالعساكر هرب واختفى في الجزائر، وليس له دأب إلا هذا مع قطع الطرق وقتل من ظفر به من أهل السنة. وهو شيخ رافضي خبيث، بل كان لا يعتقد بدين"[٤١]. وقريبًا مما أورد الجزيري ما ذكره ابن تغري بردي أيضًا[٤٢]، إلا أنه أورد الواقعة في حوادث سنة ٨٦٠هـ/ ١٤٥٦م.

مقتل المولى علي:

واصل المولى علي تحركاته وتحديه لسلطة قرا قوينلو، فهاجم قرى ديالة التابعة لبغداد سنة ٨٦٠هـ (١٤٥٧م) وهو ما شكل خطرًا جدِّيًّا على وجودهم في بغداد، فقد قتل ونهب في تلك المناطق. وعندما أرسلت قوات لنجدة بغداد انسحب المولى علي بعدها إلى الحويزة[٤٣]. فزع بيربوداق بن جهانشاه بن قرا قوينلو حاكم بغداد من هجمات المشعشع، وقد وصف عبدالباسط بن خليل بير بوداق بأنه لا يقل غلوًّا وفسوقًا عن المولى علي بن محمد بن فلاح المشعشع[٤٤].

(٤١) الجزيري، المصدر السابق، ١/ ٧٤١-٧٤٢.

(٤٢) ابن تغري بردي، المصدر السابق، ١/ ٤٩٢.

(٤٣) عباس العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ١٤٧، ١٤٩.

(٤٤) عبدالباسط بن خليل، المصدر السابق، ٦/ ٤٤٥.

وعلى أي حال، فبعد انسحاب المولى علي بعد أعماله هذه إلى خوزستان لم يبق هادئًا، بل هاجم بعض مناطقها وفرض أخيرًا حصارًا على قلعة بهبان(٤٥). وكان بيربوداق بن جهانشاه يتعقبه، وفي أثناء الحصار أصيب المولى علي بسهم مسموم أدى أخيرًا إلى القضاء على حياته في عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٧م. وحين أُبلغ بيربوداق بمقتله وجيء له برأسه المقطوع ابتهج كثيرًا لهذا النصر السريع، وسارع إلى إرسال قاصده إلى الأشرف إينال سلطان مصر الشركسي (٨٥٧-٨٦٥هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١م) يبلغه بقتله كثيرًا من عساكر المشعشع، وأنه عازم على اتخاذ التدابير اللازمة لتيسير قافلة الحج العراقي إلى مكة(٤٦).

إن مقتل المولى علي وعودة زمام السلطة إلى والده مرةً أخرى لم يؤديا إلى الحدّ من الغلو والتطرف وتسطيح الدين الإسلامي وإرهاب المخالفين، ولدينا مثال على ذلك أورده السخاوي حين قال: "إن الشيخ عبدالعزيز بن عبدالواحد البصري الشافعي قد امتحن من قبل المشعشع سنة ٨٦٣هـ (١٤٥٨-١٤٥٩م) رغم أن هذا الشيخ قد سبق له أن درس ولده محسن القرآن مما دعاه إلى الهرب إلى مكة سنة ٨٦٤هـ"(٤٧).

(٤٥) إحدى مدن خوزستان المشتهرة بحصانتها.

(٤٦) محمد بن عبدالرحمن السخاوي، **وجيز الكلام عن دولة الإسلام**، تحقيق: بشار عواد معروف وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ٣/ ١٢٢٥-١٢٢٦.

(٤٧) المصدر نفسه.

يبدو مما ورد آنفًا أنّ مسلك المشعشعين في الغلو لم يخف ولم يتغير إلا بعد وفاة محمد بن فلاح سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦١-١٤٦٢م وتولي ولده محسن القيادة بعده، ومزامنة فترته في معظمها قيام حكم آق قوينلو في بغداد.

صلة محسن المشعشع بحسن الطويل (البايندري):

إن الانتصار الذي حققه حسن الطويل (أوزون) على جهانشاه بن قرا يوسف وقتله عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م كان إيذانًا بنهاية دولة قرا قوينلو في كل من دياربكر وأذربيجان ومعظم أنحاء إيران وشمال العراق. ولقد أعقب ذلك انتزاعه بغداد من فلول قرا قوينلو عام ٨٧٣هـ/ أواخر سنة ١٤٦٩م، وتعيين ولده مقصود بيك حاكمًا عليها، إلا أنه لم يمدّ سلطته أبعد من الحلة[٤٨]. لقد بقي وسط العراق وجنوبه بأيدي المشعشعين إضافةً إلى قسم من خوزستان.

إن تولي سيد محسن بن محمد بن فلاح قيادة المشعشعين تعدّ نقطة تحول في تاريخ حركتهم وإقامة كيانهم السياسي، فقد كان محسن مدركًا مدى الاستياء الواسع من ممارسات والده وأخيه المولى علي والرفض لأفكارهما وأتباعهما من عرب الأهوار، ليس ذلك بين السُّنة فحسب، بل لدى قطاع واسع من الشيعة. لذا، فقد تبنى منذ البدء سياسة التقية والمداهنة والتصالح مع الطوائف والأطراف كافة. فتحاشى الصدام مع سلطة آق قوينلو السُّنية، بل سعى إلى التقرب من سلطانهم حسن الطويل وإعلان الطاعة له. فقد ذكر فضل

(٤٨) العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ١٧٦-١٨٤.

الله بن روزبهان (ت٩٢٧هـ) أنه "عندما كان السلطان حسن مقيمًا في شيراز في شتاء ٨٧٤هـ/ أواخر ١٤٦٩م قدَّم محسن المشعشع طاعته له، فعطف عليه؛ لأنه من سلالة الرسول، فأعطاه ولاية الأحواز بناءً على رجائه وتوسلاته، إضافةً إلى رامهرمز وبهبهان. فأودع سيد محسن شوشتر(٤٩) - التي هي قلب الأحواز - إلى ولده الكبير وولي عهده سيد حسن"(٥٠). والواقع أنّ السلطان حسن الطويل كان منشغلاً بتحقيق طموحاته في السيطرة على وسط الأناضول وطرد العثمانيين منها بالتحالف مع دولة البنادقة ومنظمة فرسان رودس الصليبية. وانتهت أخيرًا إلى هزيمته الساحقة أمام السلطان محمد الفاتح في معركة باشكنت (Baskent) في ربيع الأول عام ٨٧٨هـ/ أغسطس ١٤٧٣م وهو ما أضعفه كثيرًا(٥١).

على أي حال، استغل محسن المشعشع وفاة السلطان حسن الطويل في أواخر عام ٨٨٢هـ/ أوائل عام ١٤٧٨م وما أعقب ذلك من فوضى واضطراب في دولته حتى هاجم أطراف بغداد في تلك الأثناء. وأعاد الكرَّة مرةً أخرى في عام ٨٨٣هـ،

(٤٩) ضبطها ياقوت بالضم ثم السكون وفتح التاء والراء، مدينة في خوزستان، تعريب شوش (بإعجام الشينين)، وتشتهر بحصانتها وعظم نهرها. ياقوت، المصدر السابق، ٢/ ٢٩-٣١.

(٥٠) فضل الله بن روزبهان، **تاريخ عالم آراي اميني**، المتن الفارسي، تصحيح: جان دوذز وضمنه الترجمة الإنكليزية المختصرة لمينورسكي، الجمعية الآسيوية الملكية، لندن، ١٩٩٢م، ص٣١١-٣١٢.

(PP. 71-72).

(٥١) خليل إينالجك، **تاريخ الدولة العثمانية من النشوء إلى الانحدار**، ترجمة: محمد الأرناؤوط، دار المدار الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٤٠.

فهاجم نواحي ديالة من دون أن يلقى مقاومة[٥٢]. كما أن محسنًا استطاع انتزاع البصرة من أيدي آل شبيب زعماء المنتفق عام ٨٨١هـ/ ١٤٧٦م؛ ليكسب بذلك شهرةً كبيرةً ويصبح سلطان البصرة.

صلة محسن المشعشع بالسلطان يعقوب بن حسن الطويل:

يتضح مما سبق أن محسن المشعشع قد ازداد قوةً وصلابةً واتسع ملكه كثيرًا، مستغلاً انشغال حسن الطويل في تحقيق أهدافه التوسعية، إلا أنه ما إن تولى السلطة يعقوب بن حسن الطويل حتى وجد نفسه في مواجهة مع حركتي العصر الألفي الشيعيتين المتطرفتين: الصفوية من جهة، والمشعشعين من جهة أخرى، وكلاهما قد تبنتا النهج العسكري في أنشطتهما ونشر أفكارهما في الغلو، إضافةً إلى أنهما تدينان بالطاعة المطلقة لشيوخهما وحسب. على أنّ الفرق بين الحركتين يظهر في أنّ المشعشع قد استند في شعبيته إلى عرب الأهوار الذين نظروا إليه على أنه المنقذ مما كانوا يعانونه من ظلم وتعسف طويل من قبل السلطات الجائرة التي حكمت بلادهم. في حين أنّ الصفويين اعتمدوا على التركمان. ولقد رأى السلطان يعقوب البايندري أنّ المشعشع العربي هو الأشدّ خطرًا على دولته، فاتخذ قرارًا بضربه أولاً.

حشد السلطان يعقوب جنوده لهذا الغرض من بلاد فارس والعراق العربي في سنة ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م وأسند قيادتهم إلى بايندُر بك أبرز قادته، على أن يكون هدفهم الهجوم على

(٥٢) العزاوي، مرجع سابق، ٣/ ٢٥٨-٢٥٩.

شوشتر مركز سيد محسن الحصين في الأحواز. إلا أنّ الجنود عندما احتشدوا حول قائدهم أعلن هذا التمرُّد ضدَّ سلطانه، وهو الأمر الذي اضطر السلطان يعقوب إلى مطاردته وتفريق جموعه(٥٣).

إن تمرد بايندر بك لم يضعف من عزيمة السلطان يعقوب وإصراره على التنكيل بمحسن المشعشع، فحشد قوةً كبيرةً أخرى ضدَّه عام ٨٨٩هـ/ ١٤٨٣م تمكنت من هزيمته وزلزلت كيانه(٥٤). ويعزو عبدالباسط بن خليل سبب تلك الحملة التي قام بها السلطان يعقوب ضد محسن المشعشع إلى تحريض الأشرف قايتباي سلطان المماليك الشراكسة (٨٧٢-٩٠١هـ/ ١٤٦٨-١٤٩٦م) على ذلك(٥٥). وهو ما يعكس أن العراق قد تحول إلى ساحة لتصفية الحسابات المتعلقة بالصراعات القديمة والمستجدة. ويبدو أن السلطان المملوكي كان يمارس الضغط على سلطة آق قوينلو في بغداد للقيام بذلك من خلال التعرض لقافلة الحاج العراقي بالضرب والإهانة وعدم السماح لها بالحج، كما حدث في عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٢م والسنة التي تلتها، إذ قُبِض على أمير الحاج العراقي من قبل أمير الحاج المصري وأخذه إلى القاهرة(٥٦). كما أن الاحتمال الأكثر هو أن السلطان المملوكي كان يريد ضرب تجارة

(٥٣) فضل الله بن روزبهان، المصدر السابق، ص٢٠٠-٢١٤.
(PP. 39-41).

(٥٤) المصدر نفسه.

(٥٥) عبدالباسط بن خليل، المصدر السابق، ٣/ ٣٧٩.

(٥٦) الجزيري، المصدر السابق، ١/ ٧٥٣.

البصرة التي كانت قد انتعشت كثيرًا مع الهند، والتي كانت تذهب إلى أراضي الدولة العثمانية التي هي في صراع معه، وتوجيه تلك التجارة من الخليج العربي نحو البحر الأحمر حيث السيطرة المملوكية(٥٧).

مواجهة محسن المشعشع لمتمردي الداخل:

إن الهزيمة المُرة التي تلقاها سيد محسن المشعشع على يد السلطان يعقوب وضغطه المستمر عليه، كانا - دون شك - قد أثَّرا في مكانته وهيبته بين أسرته وعشائره، بل كان يتوقع ضربات أخرى من خصمه. برغم هذا، فهو لا يزال يملك مساحة واسعة من الأراضي ومن الثروة لا سيما بعد ضم البصرة إلى ملكه منتزعًا إياها من أيدي آل شبيب. إلا أنه بعد أن شاخ وكبر ازدادت مخاوفه وحرصه الشديد على ملكه من أطماع من حوله من أفراد أسرته وزعماء القبائل الذين كان لهم دور رئيس في النجاحات التي تحققت للمشعشع منذ البدء. وقد تحققت مخاوفه، فحصل أن خرج عليه الأمير جابر والأمير نصر وهما من كبار زعماء العرب. وأعقب ذلك خروج أخيه إبراهيم بن محمد بن فلاح سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨١م ولجوئهم جميعًا إلى السلطان يعقوب في تبريز، فرحب بهم وأكرم وفادتهم. ولقد قيل بأن سبب خروجهم هو استنكارهم

(٥٧) أحمد السيد دراج، **إيضاحات جديدة عن تحول تجارة البحر الأحمر من مطلع القرن التاسع عشر الهجري**، مطبعة عين شمس، القاهرة، ١٩٦٨م. راجع أيضًا: محمد أمين محمد، "تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الشراكسة"، بحث منشور ضمن كتاب: **البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية**، إشراف: أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، ١٩٨٠م، خصوصًا الصفحات من ١٧١-١٧٥.

واستهجانهم ممارسات المشعشعين في الغلو والشعوذة[٥٨]، من دون أن يشيروا إلى طموحاتهم الشخصية في مواجهة احتكار سلطانهم شخصيًا للسلطة والتمسك بها بقوة.

لقد نظر السلطان يعقوب إلى هذا الانشقاق في صفوف أعدائه على أنه مؤشر إلى بدء النصر الحاسم على المشعشعين، حتى إنه سارع إلى إبلاغ السلطان العثماني بايزيد بن محمد الفاتح (١٤٨١-١٥١٢م) الذي كان يعاني مثله ضغوط القبائل التركمانية في وسط الأناضول، التي أخذت في التشيع على يد الحركة الصفوية. ففي رسالته المؤرخة في ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م تضمنت الحديث عن أحوال المشعشعين ولجوء الأمير إبراهيم بن المهدي أخي سيد محسن وخروجه عن نحلتهم، وأن سيد محسن هذا كان نصف العراق يكنون العداء له[٥٩]. وهو ربما يشير بذلك إلى استيلائه على البصرة.

على أي حال، لم يترك السلطان يعقوب فرصة سانحة للتدخل في شؤون محسن الخاصة إلا اهتبلها، فحين طلب السيد محسن المشعشع من ولده الكبير وولي عهده سيد حسن الحضور إلى الجزائر وترك شوشتر بعد أن أدرك أن من حوله يحرضونه على التمرد، ما كان من الولد إلا أن رفض الاستجابة لطلب والده خشية من أن يصيبه الأذى، وهو ما أثار غضب والده الشديد. عندها جمع الأخير قوةً كبيرةً من منطقة الجزائر والبصرة والحلة والرماحية والأحواز

(٥٨) فضل الله بن روزبهان، المصدر السابق، ص٣١٢-٣١٦.
(PP. 71-72).

(٥٩) أرشيف طوبقو سراي، وثيقة رقم (E832)، انظر صورتها في الملاحق.

وزحف بها نحو شوشتر. وهذا ما زاد من مخاوف السيد حسن إلى درجة كبيرة، فسارع إلى الاستنجاد بالسلطان يعقوب بأن أرسل مبعوثًا إليه طالبًا مساعدته ضد والده وسرعة إنجاده. لم يترك السلطان يعقوب هذه الفرصة السانحة تفوت عليه، فأرسل بسرعة جيوش فارس بقيادة منصور بك بورناك، على أن تلتحق بها جيوش العراق العربي وهمدان وإقليم الحدود مع أمرائها كافة(٦٠).

أدرك محسن بن المهدي مدى الورطة التي وقع فيها والتي ربما تؤدي إلى زوال ملكه؛ لذا سارع إلى سحب جنوده والتموضع في منطقة الجزائر ذات الطبيعية الحصينة والقدرة على الدفاع والمطاولة، حيث أتباعه المخلصون من عرب الأهوار. أما ولده سيد حسن فقد أصبحت مخاوفه الآن متجهة إلى جيوش السلطان يعقوب التي قد تزحف نحو شوشتر؛ لذا أرسل على وجه السرعة ولده جلال الدين حمزة إلى تبريز سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٨٩م ليبلغ السلطان يعقوب برفع والده الحصار عن شوشتر وانسحاب العرب منها، وأنه لا ضرورة لإرسال الجيوش لنجدته(٦١). هذا وقد ذكر وودز (Woods) أن جيوش سلطان يعقوب قد استولت فعلاً على شوشتر، وهذا ما لم يقله ابن روزبهان(٦٢).

(60) John E. Woods, *The Aq-quyulu, Minneaples-Cahicogo,* 1976, p. 154.

(٦١) فضل الله بن روزبهان، ص٣٧٥-٣٧٦.

(PP. 86).

(٦٢) المصدر نفسه.

وفي هذا السياق، سارع سيد محسن بن المشعشع إلى إرسال مبعوثه إلى السلطان يعقوب يخبره بأن الأزمة العائلية بينه وبين ولده قد انتهت، وأعطيت له دزفول إضافةً للأراضي التي في حوزته(٦٣). ردّ السلطان يعقوب على ذلك بقوله: إن سيد حسن قد دخل في طاعته وحمايته، ومن يتجاوز عليه لن يسلم من العقاب الرادع(٦٤). وهكذا أصبح الباب مفتوحًا لتدخلات السلطان يعقوب في شؤون المشعشعين، في حين أن محسن المشعشع استمر في اتباع سياسة المداهنة والمصالحة والتقرب للسلطان المذكور. ففي عام ٨٩٥هـ/ ١٤٩١م بعث رسالة إليه يؤكد خضوعه وتمنياته له بالصحة وطول العمر بعد أن كان الطاعون قد انتشر في بلاده(٦٥). إلا أنه لم تمض على ذلك سوى بضعة أشهر حتى توفي السلطان يعقوب في ١١ صفر ٨٩٦هـ/ ٢٤ ديسمبر ١٤٩٠م. وقد أعقب وفاته حدوث صراع دامٍ بين أمراء آق قوينلو حول السلطة، وهو ما أتاح الفرصة لاحقًا لخصومهم الصفويين للانقضاض عليهم بقيادة الشاه إسماعيل بن حيدر الذي انتزع من أياديهم المدن والأقاليم الواحدة تلو الأخرى. فكان اختفاء دولة آق قوينلو من المسرح السياسي في كل من أذربيجان وإيران، إضافة إلى شمال العراق ووسطه(٦٦).

(٦٣) المصدر نفسه.

(٦٤) المصدر نفسه.

(٦٥) المصدر نفسه.

(66) Adel Allouche, *The Origin and Development of the Ottoman-Safavid Conflict 906-962/ 1500-1550*. Berlin, 1988, PP. 60-64.

علاقات محسن بن المهدي بالهند ومصر:

إن انتشار الإسلام في السواحل الهندية ما بين القرنين (٨-٩هـ/ ١٢-١٥م) - الذي كان لعرب جنوب الجزيرة وعمان دور رائد فيه - أدى إلى توسع التجارة ما بين الهند والخليج العربي، فكانت الخيول العربية الأصيلة ولؤلؤ البحرين الثمين السلعتين اللتين كان يحرص حكام الهند على الحصول عليهما، ولعل خلف البصري الأحسائي - تاجر الخيول - قد أصبح وزيرًا في الهند لرغبتهم في انتظام وصول الخيول العربية. كما أن أسرة الطيبيين التي تملك أسطولاً واسعًا لنقل الخيول إلى الهند دليل على عمق التواصل التجاري بين الخليج والهند(٦٧). ومقابل ذلك كانت الأقمشة الهندية المتنوعة والتوابل المختلفة تجد لها سوقًا رائجًة في الخليج. لذا فإن محسن المهدي بعد أن استحوذ على طرق تجارية نهرية وبحرية وبرية ترتبط تجاريًا بطريق الخليج العربي بعد أن ضم إلى ملكه البصرة، واسترضى زعماء المنتفق بترك باديتها تحت سيطرتهم ليقودوا القوافل التجارية الصحراوية ما بين البصرة رأس الخليج وحلب ذهابًا وإيابًا، إضافةً إلى قافلة الحج (قافلة عقيل). وهو الأمر الذي جعل السلطان

(67) Genevieve Bouchon, Quelques Aspects de L'islamisation des Regions de L'inde A L'epoque Medievele (*XII-XVIIes, IN Islam and Society in South Asia (ED).* Mare Gaboriau (Paris 1986) PP.29-36.

انظر أيضًا: عبداللطيف ناصر الحميدان، "تاريخ العصفوريين في شرق الجزيرة العربية"، **مجلة كلية الآداب بالبصرة**، عدد ١٥، السنة ١٩٧٩م، ص٦٩-١٢٠. خصوصًا الصفحات من ١٠١-١٠٧.

محسنًا في موضع اهتمام لدى حكام الهند، ومثله حكام بلاد البحرين من بني جبر الذين يقودون أيضًا قافلة الحج الأحسائية (قافلة بني جبر).

لقد كان حكام الدولة البهمنية في الهند (الدكن) هم الأنشطين تجاريًّا في الخليج العربي في عهد وزيرها البارز محمود قاوان الجيلاني (ت٨٨٩هـ/ ١٤٨٤م)، إذ كانت لتلك الدولة علاقة تجارية نشطة سابقًا مع دولة آق قوينلو نحو شيراز ولار وتبريز(٦٨). وكانوا في صراع خفي مع المماليك حول تجارة المحيط الهندي؛ لذا حرص محمود قاوان على توسيع تجارة بلاده في الخليج العربي نحو حلب وبورسا - عاصمة العثمانيين سابقًا - عبر البصرة، فكان لا بد له والحالة هذه من إقامة صلات وثيقة مع زعماء شمال الخليج البارزين، كأجود بن زامل (سلطان بلاد البحرين)، ومحسن المشعشع (سلطان البصرة)، لذا عمد إلى مراسلتهم(٦٩).

أما رسالته إلى السلطان محسن فهي تختلف عن رسالته إلى السلطان أجود في الأسلوب واللغة؛ فكان قاوان السياسي والتاجر المحنك يخاطب في الأولى حاكمًا سنيَّ المذهب، في حين يخاطب في رسالته لمحسن حاكمًا شيعيًا مغاليًا في

(68) J-Aubin, Les Relation. Diplmatiques entreles Aq-Qoyunlu et les Bahmmanides, *JESHO*, P. 11-15.

(٦٩) سبق نشر رسالة قاوان إلى السلطان أجود الجبري. راجع: عبداللطيف بن ناصر الحميدان، "مكانة السلطان وأجود بن زامل الجبري في الجزيرة العربية"، **مجلة الدارة**، السنة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٤م، العدد٤، ص٥٦-٧١.

معتقده، فكان استرضاؤهم وكسبهم يتطلبان من كاتبها اختيار الألفاظ المناسبة لكل منهما.

فقد جاء في رسالة محمود قاوان الأولى: "المولى السلطان المحسن المنيع الشأن الذي تشعشع كواكب محامده من مطالع الألسن، وترعرعت ملكته القاهرة في كل شهر وسنة... لا زال سواد شيعته وجيشه بحصار النصر محاطًا، كما جعل سور حمايته بسواد البصرة محيطاً ما قرب ظهور الإمام وتم به دين الإسلام، وجاء الحق وزهق الباطل وارتفع الخصام". وأخيرًا يختم محمود قاوان رسالته "بأن نزول ظلمات الموانع عن طريق الفوز بالملاقاة بمحمد خير البشر"(٧٠).

أما الرسالة الثانية فنقتطف بعضها: "نحمد الله الذي أيد الإسلام بظهور عترة المصطفى المجتبى، وجعل أتباعه ذريعة النجاة يوم لا ينفع إلا المودة في القربى"(٧١).

على أي حال، حققت رسائل قاوان التي صيغت ببراعة أهدافها في اتخاذ البصرة منطلقًا لوصول أقمشة الهند وتوابلها إلى أسواق حلب وبورسا في الأراضي العثمانية، وكسبت رواجًا فيها، وتعيين وكيل تجاري له في البصرة وفي بورسا الذي لقي رعاية واحترامًا من السلطات فيها(٧٢).

---

(٧٠) عبدالكريم محمد النميدهي، **كنز المعاني**، مكتبة رئيس الكتاب مصطفى أفندي في مكتبة السليمانية، إستانبول، رقم المخطوط ٨٨٤، ورقة ٢٥٥-٢٥٦.

(٧١) المصدر نفسه، ورقة ٢٥٦.

(72) H-Inalcik, Bursa and Commerce the Levant, *JESHO* H (1960) PP. 130-147.

ويبدو أنّ العلاقات التجارية المزدهرة ما بين البهمنيين في الهند والسواحل الشمالية للخليج العربي، والتخلي عن الطريق التجاري المؤدي إلى شيراز في داخل الأراضي الإيرانية قد دفعت خليل بك الصوفي (الحاكم العسكري لشيراز) إلى مهاجمة السكان العرب عند ساحل كرمسير (المنطقة الحارة) وجرون (هرموز) عدة مرات، وهو ما أثار استياء السكان فيها بتهديد مصالحهم التجارية، واستقلالهم الذاتي الذي كانوا ينعمون به، وهذا حملهم على رفع شكاويهم إلى ديوان السلطان يعقوب في تبريز، لا سيما بعد أن أخذ خليل بك الصوفي في بناء القلاع على ساحل فارس وإعداده أسطولاً لغزو الهند.

استجاب السلطان يعقوب لتلك الشكاوى وعزل خليل بك الصوفي، وعينه قائدًا لمواجهة الكفار في جورجيا، وحل بدله الأمير منصور بك بورناك سنة ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م[٧٣]. وفي هذا السياق ولغرض تأمين سير القوافل التجارية من هرموز وسواحل الخليج، أرسل ملك هرموز والولايات البحرية سنة ٨٩٥هـ/ ١٤٤٠م الخراج المقرر إلى السلطان يعقوب مع هدية ثمينة وتأكيد طاعته له[٧٤].

لم تقتصر صلة محسن بن المهدي على العلاقة التجارية مع الهند فحسب، بل سعى أيضًا إلى إقامة صلات مع دولة

(٧٣) فضل الله بن روزبهان، المصدر السابق، ص٢٢٦-٢٣٠.

(PP. 46).

(٧٤) المصدر نفسه، ص٣٨٥.

(PP. 86).

الشراكسة في مصر، فبُعيد وفاة السلطان يعقوب بمدة قصيرة، أرسل مبعوثًا عنه إلى القاهرة حاملاً معه رسالةً إلى السلطان الأشرف قايتباي مع هدية قيمة، وقد ذكر السخاوي ذلك حين قال: وصل في صفر سنة ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م قاصدًا ابن حسن بك ملك العراق من دون أن يذكر اسمه، كما وصل قاصد محسن الملقب بالمشعشع صاحب البصرة، والمذكور أخف فسادًا من أبيه من دون أن نعلم بما جاء من أجله(٧٥).

إن هناك احتمالين لسفارة محسن؛ إذ قد تكون لها علاقة بقافلة الحج (قافلة عقيل) التي لها اتصال أيضًا بقافلة حجاج بني جبر من الأحساء؛ حيث تحظى الأخيرة بعلاقة جيدة مع المماليك(٧٦). أو أن لتلك السفارة علاقة بالحرب الطويلة والمنهكة التي كانت تدور بين المماليك والعثمانيين(٧٧)، الذين هم في أمس الحاجة دائمًا إلى الجمال والخيول، وأن محسن سلطان البصرة في مركز يمكنه من تلبية الطلبات على تلك الخيول. وهذا مؤشر إلى محاولة فك الاختناق عن المشعشعين من قبل قرا قوينلو.

دور محسن بن المهدي في ترسيخ كيان المشعشعين:

نجح محسن بن المهدي في احتواء الهجمات العسكرية والتخفيف من الضغوط السياسية والنفسية التي مارسها

(٧٥) السخاوي، المصدر السابق.

(٧٦) الجزيري، المصدر السابق، ١/ ٧٦٤-٧٦١.

(77) Shai Har-El, *The Struggle for Domanation in Middle East: The Ottoman- Mamluk War (1485-1491),* Brill, Leiden, 1995.

ضده السلطان يعقوب البايندري، وفي الاستمرار في سياسة التقرب من الزعامات العربية النافذة في المنطقة وشرائحها المختلفة ومن بينهم علماء الشيعة العرب الإمامية كما يذكر الشوشتري(٧٨). ويضيف المولى علي الموسوي إلى ذلك قوله: إن محسن "أحسن السيرة مع سكان العتبات المقدسة وخدام الروضة المشرفة"(٧٩). كما عبر السخاوي عن رأي علماء السُّنة حين قال: "إن محسن الملقب بالمشعشع ابن الملقب بالمهدي صاحب البصرة، كان أخف فسادًا من أبيه، حيث قرأ القرآن على يد عبدالله البصري الشافعي نزيل مكة"(٨٠). ويروي ضامن بن شدقم الحسيني المدني أن صديقًا للسلطان محسن منذ الصغر قد زاره راجيًا منه العطاء، وكان شيعيًا إماميًا، فوجد محسن جالسًا مع (٨٠٠) من أتباعه وهم يمارسون الذكر بضرب الدفوف ووضع السيوف في بطونهم... حتى أخذتهم السكرة، فلم يزالوا في غفلة حتى أتاهم الطعام، فأكلوا وانتشروا. عندها عاتبه صديقه على ذلك قائلاً: لقد ارتكبت ما نهى عنه أجدادك. فقال: والله لقد غصبت ومن الخوف منهم وافقت، ولو يقع لي القرار لفررت، وأنا متبع (من لا تقية له لا

(٧٨) نور الدين الشوشتري، **تذكرة شوشتر**، كلكتة، ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، ص٣٤-٣٦.

(٧٩) المولى علي الموسوي، المصدر السابق، ورقة ٨. عبداللطيف ناصر الحميدان، "مخطوطة علي بن عبدالله الموسوي، محتواها وأهميتها كمصدر تاريخي"، **المجلة التاريخية المغربية**، تونس، ١٩٨٣م، العدد ١٩-٢٠، ص١٦٧-١٩٩.

(٨٠) السخاوي، المصدر السابق، ٣/ ١٢٢٥-١٢٢٦.

إيمان له)[٨١]. لذا استطاع سيد محسن تحسين صورته العامة لدى طبقة مهمة من طوائف المجتمع العربي باتباع التقية، حتى إن شمس الدين الأستراباذي كتب حاشية على رسالة إثبات الوجود سماها باسمه وأهداها إليه[٨٢].

أما في المجال العسكري فإن مخاوفه من هجوم الأعداء عليه من الخارج والطامحين من العرب في الداخل دفعه إلى بناء القلاع، ولذا وصفه ضامن بن شدقم بأنه كان ذا جأش وقوة وشدة، وأضاف ابن شدقم أنه ابتدع عمارة البلدة المعروفة الآن بالمحسنية فسكنها. كما ذكر الكاتب نفسه أن أحد ملوك العجم أرسل رجلاً يتفحص عن أحواله، فأقام مدةً من دون أن يحصل على معلومة، فذهب إلى المحسن وصارحه بما جاء من أجله، عندها ضرب المحسن الجرس، فاجتمعت إليه الجنود مستكملين بالأسلحة، فقال للجاسوس: إن الجنود حصننا، والسلاح ذخيرتنا، والخيل يبلغ بها المنى، وتنجينا من العدى، والمال ليس فيه منجى، والشح للملوك من أعظم الردى. عندها انصرف الرجل إلى مرسله[٨٣].

على أي حال، تحدث المولى علي الموسوي عن استعدادات محسن العسكرية، فقال: "إن أول من أحدث البنايات والقلاع

(٨١) ضامن بن شدقم الحسيني المدني، **تحفة الأزهار وزلال الأنهار في نسب أبناء الأئمة الأطهار**، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، طهران، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٣٢-٢٣٣.

(٨٢) أحمد كسروي، مرجع سابق، ٥٩-٦٠. العزاوي، مرجع سابق ج٣، ص١٧٥. عبدالنبي القيم، **تاريخ الأهواز**، دار مدارك، دبي ٢٠١٢م، ص١٢١-١٢٥.

(٨٣) ضامن بن شدقم، المصدر السابق، ص٢٣١-٢٣٢.

والضياع في الحويزة سيد محسن المعروف بالملك المحسن". أما عن مشاهدات المذكور الشخصية في أوائل القرن ١٢هـ/ ١٨م، فقال: "كان على نهر جعفر القريب من قلعة زكيَّة، قلعة في نهاية الكبر والاستحكام وارتفاع الكرسي، بناها الملك المحسن بن محمد بن فلاح، وكان حاطًا فيها الأمير عجل مع عساكر ملؤها الخيل والزلم". كما أضاف قائلاً: "وله عمارة أيضًا مقابل صدر نهر جعفر بفاصلة عن الشط، في نهاية السعة وحسن البناء وفيها حمام، وآثار الجميع ظاهره للعيان"(٨٤).

إن ما سبق يشير إلى تحول حركة المشعشعين بقيادة محسن بن المهدي إلى التنظيم وبناء ركائز سلطة قاهرة. وقد بالغ مؤلفنا الموسوي كثيرًا عند حديثه عن سعة ملك محسن، حتى إنه عدَّ الأحساء والقطيف من ضمن ممتلكاته(٨٥)، في حين أنها كانت في زمن محسن المهدي تُحكم من قبل الجبريين(٨٦). مع هذا نصغي لما قاله الموسوي: "إن محسن المهدي تملك الجزائر وما يتعلق بها من ضياع وقرى وأمصار، وجميع نواحي بغداد ما حدّ سورها من شرق وغرب وقبلة، ثم تملك البصرة والأحساء والقطيف، ثم الدروق(٨٧) والساحل

(٨٤) المولى علي الموسوي، المصدر السابق، ورقة ١٦.

(٨٥) المصدر نفسه.

(٨٦) راجع: عبداللطيف ناصر الحميدان، "التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة"، **مجلة كلية الآداب**، جامعة البصرة، ١٩٨٠م، العدد ١٦، ص٣١-١٠٩.

(٨٧) الدورق - بفتح أوله وسكون ثانيه وراء بعدها قاف - ميناء في خوزستان على شط العرب تتوقف عنده السفن القادمة من الهند. ياقوت، المصدر السابق، ٢/ ٤٨٣-٤٨٤.

إلى بندر عباس، ثم كوه كيلو يه[٨٨] مع حد بهبهان ورامهرمز[٨٩] مع شوشتر وأكراد الفيلية[٩٠] وبيات[٩١]"[٩٢].

فنحن إذن أمام إمارة عربية واسعة نجح محسن المهدي في تأسيسها وتثبيت كيانها وتنظيمها بعد مرور أكثر من ثلاثة عقود من الصراع، شملت وسط العراق وجنوبه وخوزستان وسواحلها، فأخذ يُطلق على محسن تارةً ملك، وتارةً سلطان.

وخلاصة القول: إنّ حركة المشعشع أحدثت نقلةً تاريخيةً في حياة عرب البطائح والأهوار، حيث أدت إلى ظهور طبقات وشرائح اجتماعية جديدة تصدَّر بعضها المشهد السياسي والاجتماعي خلال تلك المدة. وأول ما تجدر الإشارة إليه طبقة السادة المنتمين لأسرة المهدي ومن يرتبط بها بعلاقات المصاهرة، إذ كانوا يتوارثون السلطة وأعلى المناصب، ويحظون بأعلى المراتب وأكثر الموارد والإقطاعات. ويليهم في المكانة شيوخ العشائر وزعماء الطوائف ورؤساؤها، وفي مقدمتهم آل عليان أصحاب السلطة والنفوذ في منطقة الجزائر - جزائر ابن عليان - الذين ارتبطوا بروابط الولاء لأسرة المشعشع منذ وقت مبكر. ثم يتلو ذلك طائفتا نيس وكربلا اللتين تشكلان

(٨٨) كوه كيلوه: بلدة في خوزستان في الطريق إلى رامهرمز.

(٨٩) رامهرمز: مدينة مشهورة في خوزستان. ياقوت، المصدر السابق، ٣/ ١٧-١٨.

(٩٠) أكراد الفيلية: تسمية تطلق على الأكراد الشيعة الذين يستوطنون لورستان وجبال بشتكوه عند حدود العراق الشرقية مع إيران.

(٩١) بيات: بلدة صغيرة على نهر الطيب عند حدود العراق الشرقية في محافظة العمارة، وقد ضمت إلى إيران في أواخر القرن التاسع عشر.

(٩٢) المولى علي الموسوي، المصدر السابق.

العمود الفقري لقوة المشعشع العسكرية، فهم أنصارها وجنودها الذين أسهموا بقوة في إقامة صرح الدولة وحماية أراضيها، وارتبطوا بروابط الولاء "للسادة". لذا فهم يحظون بالإقطاعات الواسعة. أما الشريحة الأخيرة فهم الحرفيون والباعة المتجولون وصغار المزارعين ومربو البقر والجواميس؛ إذ يشكلون عصب الحياة الاقتصادية في المجتمع، وبذلك كوَّن المشعشعون في منطقة الأهوار عمومًا وفي منطقة الأحواز خصوصًا هويةً عربيةً تتميز بغلوِّها وتطرفها المذهبي.

وعلى أي حال، فإن وفاة السلطان محسن بن المهدي سنة ٩٠٥هـ/ ١٥٠٠م كانت مؤشرًا على قرب نهاية استقلال دولة المشعشعين وتفكك عراها. إذ زامن ذلك ظهور الشاه إسماعيل بن حيدر الصفوي، واكتساحه أقاليم إيران الواحد تلو الآخر منتزعًا إياها من أيدي بقايا أمراء آق قوينلو السنيي المذهب. وأخيرًا انتزع الشاه إسماعيل بغداد سنة ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م، ثم أعقبها زحفه على الحويزة، فاصطدم بفياض بن محسن بن المهدي زعيم المشعشعين الذي فقد حياته خلال المواجهة[٩٣]. وقد تلا ذلك خروج معظم أراضي دولة المشعشعين، فذهب بعضها للصفويين، والآخر اقتسمه عدد من الزعماء المحليين المتنفذين.

(٩٣) حسن روملو، **أحسن التواريخ**، تحقيق: جارلس نارمن سيدن، تهران، ١٣٤٢، ص١٠٤. علي إبراهيم درويش، **السياسة والدين في مرحلة تأسيس الدولة الصفوية (١٥٠١-١٥٧٦)**، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، بيروت، ٢٠١٣م، ص٨٨.

ويصف الموسوي الحالة بعد وفاة السلطان محسن بن المهدي بقوله: "خرجت الممالك بأسرها، مثل: شوشتر وما يلحق بها، والأحواز وما يتعلق بها، وثار أهل الجزائر بأرضهم، والمنتفق تملكوا البصرة والأحساء والقطيف"(٩٤).

والذي يبدو أن البصرة قد خرجت من سيطرة المشعشعين بُعيد وفاة السلطان محسن بن المهدي، إذ إنّ مؤلف كتاب (جهانكشاي خاقاني) -المؤلف المجهول - ذكر أنه "ما إن استولى الشاه إسماعيل على شيراز في ربيع الأول عام ٩٠٩هـ (سبتمبر عام ١٥٠٣م) حتى سارع حكام كل من فارس ولار وهرموز والبصرة إلى إرسال سفرائهم لتقديم التهنئة إليه مع مفاتيح قلاعهم ومدنهم، فقابلهم الشاه إسماعيل بالترحاب وتقبل هداياهم، ثم أذن لهم بالانصراف إلى بلدانهم"(٩٥).

إن هذا النص يمكن أن يتخذ دليلاً على دخول البصرة تحت حكم أمراء المنتفق، كما أن قول الموسوي بخصوص "ثورة أهل الجزائر بأرضهم"، يمكن أيضًا أن يتخذ دليلاً على استقلال أسرة آل عليان بمنطقة الجزائر شمالي البصرة.

---

(٩٤) المولى علي الموسوي، المصدر السابق، ورقة ٨. الحميدان، "مخطوطة علي بن عبدالله الموسوي"، ص١٨٣.

(٩٥) مجهول المؤلف، **جهانكشاى**، ص١٨٧-١٨٨. أمير حسين خونجي، **إيران الصفوية**، ترجمة: أحمد حسين بكر، مكتبة النافذة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص١٣٨-١٣٩.

الخلاصة:

كانت البطائح والأهوار في وسط العراق وجنوبه ملاذًا آمنًا للجماعات والطوائف والعشائر المختلفة التي كانت تتحاشى عسف السلطة في بغداد واعتداءات القبائل البدوية المتنقلة. وقد تزايد ساكنوها مع مرور الوقت حتى غدت لهم قوة مؤثرة في العصور العباسية المتأخرة، فكان ظهور إمارة بني شاهين ومن أعقبها من إمارات.

إن ظهور سيد محمد بن سيد فلاح الملقب بالمشعشعي في النصف الأول من القرن ٩هـ/ ١٥م قد صاحبه تأثير عميق في حياة ساكنيها من العشائر والطوائف العربية الذين كانوا يتطلعون إلى الخلاص من قهر السلطة التركمانية الغريبة وإقطاعيي المنطقة. لقد سلك سيد محمد بن فلاح طريق الزهاد والمتصوفة، وادّعى أنه الممهِّد لظهور المهدي مع هذيان دائم عن قرب ظهور الإمام المنتظر الذي سيقيم العدل في الأرض، ونتيجةً للأخطار التي كانت تهدد حياته من قبل أستاذه وصهره ابن فهد، لجأ إلى طوائف العرب وعشائر أهوار منطقة الجزائر، حيث حقق نجاحًا فيما بينهم بقوة شخصيته ومآثره في إظهار بعض المعجزات التي أبهرت عقولهم البسيطة، ورأوا فيه القائد المنتظر للخلاص النهائي من الإذلال والبؤس الذي يرزحون تحته. وعندما دعاهم إلى حمل السلاح استجابوا له وقاتلوا تحت قيادته، فكان منطلقًا لتثويرهم وإحداث تحول في حياتهم.

إن نجاح ابن فلاح في حشد سكان منطقة البطائح والأهوار في مواجهة السلطة التركمانية في بغداد أثار مخاوفها، فشنوا الحرب والتضييق عليه، وهو ما ألجأه إلى الحويزة في خوزستان، فتصدَّى له التيموريون حكامها، إلا أنه نجح في هزيمتهم، وهذا ما دعا زعماء العرب في خوزستان إلى طلب النجدة من إسبند بن قرا يوسف (حاكم بغداد) الذي لم يحقق هو أيضًا نجاحات حاسمة، فاضطر إلى العودة إلى بغداد خائبًا.

وعندما تولى المولى علي بن المهدي قيادة المشعشعين بعد أن شاخ والده أثار بأعماله استياءً واسعًا لدى قطاع كبير من السكان؛ لغلوه وادعائه الألوهية، ولنهبه ضريح الإمام علي، وقتله الحُجاج، وانسحابه بعدها إلى خوزستان ليلقى مصيره هناك.

تولى محسن بن مهدي بعد حين، فنهج نهجًا مخالفًا لوالده وأخيه باتباعه سياسة ترطيب المشاعر المعادية لدى الطوائف كافة والتقرب إليهم. كذلك تقرب للسلطان حسن الطويل مؤسس دولة آق قوينلو البايندرية، وبذلك استطاع ترسيخ كيانه السياسي. وعلى الرغم من أن السلطان يعقوب بن حسن الطويل قد عمل جاهدًا على تدمير كيانه محسن وتمزيقه، فإنّ الأخير نجح في الصمود في وجهه وإفشال خططه وفق سياسة تميزت بالمرونة حتى إنه استولى على نصف العراق، فضمَّ البصرة إليه بعد أن أزاح حكم المنتفق عنها، وأكثر من بناء القلاع والتحصينات وعبأها بالجنود من

أتباع المشعشعين المخلصين.

مهما يكن من أمر، فإنّ ظهور الدولة الصفوية المغالية في أذربيجان وقضائها على دولة آق قوينلو غيَّر المشهد السياسي في المنطقة عمومًا، وفي أثناء ذلك توفي السلطان محسن، فتشظى كيانه السياسي، وعندما استولى الشاه إسماعيل على بغداد، زحف على المشعشين في خوزستان، فضم بلادهم إلى مملكته.

ومع هذا، فإنّ حركة المشعشع قد أوجدت أثرًا عميقًا في تربة العراق، وفي منطقة الأهوار على الخصوص، حتى إن العثمانيين حين بسطوا سيطرتهم على العراق وجدوا في ابن عليان الطائي عقبةً في وجه مدِّ نفوذهم على منطقة الجزائر، كما أنّ المشعشعين في الحويزة كانوا شوكة في جنب البصرة وبغداد يحركها الصفويون.

الملاحق

ملحق رقم (١)

صورة من مخطوطة كنز المعاني

صورة من مخطوطة كنز المعاني

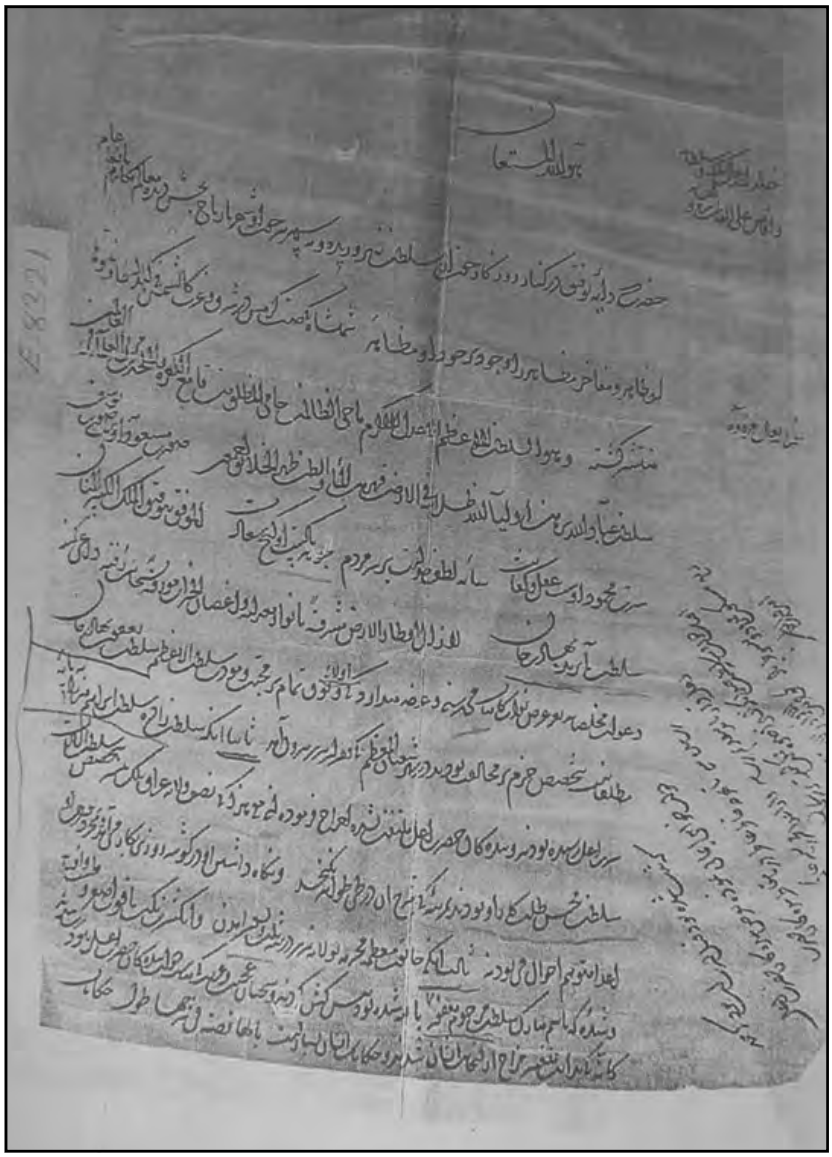

ملحق رقم (٢)

رسالة السلطان يعقوب بن حسن الطويل إلى السلطان بايزيد تتعلق بنشاط مشعشعين سنة ٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م

ترجمة رسالة السلطان يعقوب إلى السلطان بايزيد

خلد الله ملكه وسلطانه هو الله المستعان

وأفاض على العالمين جوده وإحسانه

إلى حضرة سليل السلاطين الذي تشخص الأبصار إلى سماء مرحمته وعطفه، الملك المتوج، عين معالم المكارم والإنعام العام والظاهر، رمز المفاخر الظاهرة التي ملأت الوجود، ملك الملوك الذي صفات كرمه إنارات الشرق والغرب كالشمس في كبد السماء، وهو السلطان الأعظم الأعدل الأكرم، ماحي الظالمين وحامي المظلومين، قامع الكفرة والملحدين، مربي العلماء في العالمين، سلطان عباد الله، مأمن أولياء الله، ظل الله في الأرض، فخر الأوطان، ظهير الخلائق أجمعين، صورته المسعودة كصورة يوسف وسيرته محمودة، ذو العقل الوافي، ظل الله ولطفه على رؤوس العباد، ذو المعدن النقي وكنز السعادة. الموفق بتوفيق الملك الكبير المنان السلطان بايزيد بهادر خان لازالت أقطار الأرض مشرقة بأنوار منزلته وأغصان الخيرات مورقة بسخاء رأفته والداعي لديه دعوى مخلصة يسأل منه أمرين اثنين:

الأول: الوثوق التام بمحبة ومودة السلطان الأعظم السلطان يعقوب بهادر خان حيث المطلعون يعلمون حزمكم في مناوءة خروجه في شهر شعبان المعظم الرجاء هو إنهاء الامتناع.

الثاني: هو أمن ولد السلطان، السلطان إبراهيم ميرزا بيك قد وصل إلى السرير الأعلى وعبيدكم من الناس لم يعلموا

بذلك فأقدم على إخراجهم، مع العلم أن نصف سكان ولاية العراق يتبعون إلى السلطان الأعظم السلطان محسن وهم مناوئون ويطلبون الثأر منه، حيث الشرح طويل ولا تستوعبه الطوامير.

وأرى أن الحفاظ عليه في زاوية سيكون مفيدًا يوم ما، وبمجرد أنه حي فهذا يوهم الأعداء الذين يتربصون بالملك.

الثالث: أن الخاتون المعظمة محرم بولاية تبريز سنة ثلاث وتسعين المولا قد جاءت بالثلث الأخير وأتت بخاتم ذي شذرةً من الياقوت الأصفر منقوش عليه الاسم المبارك للسلطانة المرحومة المعففة، وقدمته وشوهد عليه كلام عجيب وغريب يبدو عليه أنه يخص سموكم العالي أو بعض حواريكم على نحو يستحيل تغيير محتواه ولذا الحكايات قد كثرت في هذا الباب وعنها بالتحديد ولها قصة في شرحها تطول الحكايات.